كلمة طلاب الفقيد

ألقاها الدكتور أحمد سمير النوري

أيها الحفل الكريم

فقد مجمع اللغة العربية وفقدت جامعة دمشق وكلية الصيدلة بل فقدت سورية علمًا من أبرز أعلامها وباحثًا من أميز باحثيها ومُعلِّمًا من أعز المعلمين على قلوب طلاب الصيدلة، إنه الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته.

ويشرفني أن أتحدث أمام جمعكم المهيب باسم طلابه، نحن الجيل الذي نهل من معين علومه الثر في العقاقير، وفي التراث العلمي العربي، فلقد استحوذ رحمه الله على مجامع القلوب وألباب العقول، بأسلوبه الشائق وخطابه اللائق وقدرته الفريدة في التدريس، وإيصال فكره وعلمه بسلاسة وانسجام إلى كل مستمع وكل راغب في تحصيل العلم، فلقد أدهشنا حين قدم لنا التراث العلمي العربي بعمق معلوماته وصدق اجتهاداته، ونالت تحقيقاته في التراث جوائز عدة، وكشف بدأبه وأناته عن كنوز علمية أبدعها علماؤنا الأفذاذ، وبقيت منسية ردحًا من الزمن في زوايا التاريخ.

وهو مؤسس علم العقاقير، رفد مخبره بأنواع متنوعة من العقاقير المحلية المستوردة، ومازالت حتى اليوم بغية الطلاب في تعرُّف أسرارها ودراسة خصائصها وتأثيراتها.

كان رحمه الله يحاكي العقل والمنطق والعلم، فجمع بين أصالة التاريخ وحداثة العلم، وربط بينهما بعروة وثقى، فكان المعلم المبدع الثاقب الفكر المتقد الذهن.

كان نظيف القلب واللسان عفيف النفس واسع الوجدان، لم يزلَّ لسانُه ولم يخطىء بيانه، حميد المزايا كريم الشيم، صفي السريرة نقي السيرة عليَّ القيم، سَمْته الهدوء وصفته الحلم، فلم نره يوما غاضبًا ولا لائمًا ولا عاتبا، حسن الخلق جيد المداراة.

وجمعني لقاء في القاهرة مع الأستاذ الدكتور عبد العظيم حفني صابر في أحد المؤتمرات العلمية، وهو عضو اللجنة العليا التي وضعت دستور الأدوية المصري، وكنت آنذاك حديث العهد غضَّ العود في فاتحة مشواري العلمي بكلية الصيدلة، فحدثني حديث القلب والروح عن الراحل الجليل، وكان الأستاذ صابر قد بلغ من الكِبَر عتيا، وكانت كلماته موزونة قوية ذات جرس، وأنا مستمع كأني في درس، وقال لي إن الأستاذ البابا درَّة أساتذة العقاقير وأحد أساطينها، وطفق يذكر بشوق أيامًا مضت وأعوامًا انقضت متحدثًا عن مناقب وخصال الراحل رحمهما الله.

ولعل قربي من الأستاذ البابا رحمه الله في قسم العقاقير، والذي امتد إلى سنوات جعلني أتعرف بالدكتور زهير البابا المعلم الإنسان، والعالم الباحث والمتواضع، فلا يحدثك عن أمجاده ولا يسترسل بذكر إنجازاته، ولا يتباهى بإرثه العلمي الذي سطره يراعه وزيَّنه إبداعه، وما زلت أذكر تلك اللحظة المهيبة التي مَثُلْتُ فيها أمام أستاذي رحمه الله متحدثًا في مسابقة لانتقاء المعيدين، ودعوت الله متوسلًا أن يحل عقدة لساني، لأنني في حضرة قامة سامقة وقمة شاهقة في علوم الأقرباذين. وما زلت أذكر رسائله لي وأنا في فرنسا موفدًا، فكانت توجيهاته الرشيدة وملاحظاته السديدة منارة أضاءت لي الدرب، وكان لي شرف مشاركته التدريس في مقررات العقاقير والنبات وتاريخ الصيدلة. واليوم وكتابي في تاريخ الصيدلة في قيد الطباعة في مطبعة جامعة دمشق أهديه إلى روحك الطاهرة.

يا معلّمي، علمتنا أن العلم أمانة وأخلاق، ونجاح وإخفاق، وعلمتنا أن إيبقراط لم يتردد لحظة في ذكر حالات الإخفاق والفشل التي مني بها، وأن تبيان أسباب الفشل طريق النجاح والحقيقة، وأن الادعاء والانتحال طريق الفشل والاضمحلال. علَّمتنا الوفاء بالقسم والتمسك بالفضائل واجتناب التدليس والرذائل، وما زلت أردد على مسمع طلابي قول إيبقراط (لست أملك من فضيلة العلم سوى علمي بأني لست عالما).

كنتَ يا سيدي حازمًا دون عنف، ولَيِّنا دون ضعف، وستبقى ذكراك مع كل نفحة من أريج ياسمين دمشق، ومع ضَوْع كل وردة دمشقية تنشر عطرها مع أنسام دمشقية عليلة، ستبقى ذكراك مع نفحات ياسمين العراتلي الذي يشفي القلوب وينعش الصدور، مع زهر النارنج والنرجس وسحر خشب الصندل، ستبقى ذكراك في كل زاوية من مخبر العقاقير بمجاهره العتيقة التي رفضت الحداثة والكهرباء، وانتظرت بشوق شروق الشمس لتعكس مراياها النور وتكشف مكنونات وخبايا خلايا عقاقيرك المخلصة من عود الأراك ورائحة البخور حيث تضفي على محرابك قدسية الأماكن المقدسة.

أيها الأستاذ الجليل كلما حاولنا سبر أغوارك وجدنا أنفسنا على رمال شطآنك ما زلنا نستظل بأفيائك، ونستدل بآرائك وننهل من ينبوع عطائك. لقد تركت أثرا يُدرس وخلفت ذِكرًا لا يمحى ولا يَدْرُس، تتغير أبراج الدنيا وتختلف مقادير الناس، بعضهم يَعْبر دنيانا ولا يخلِّف ذكرا ولا صدى، ويبقى ذكرك مع العلماء والعظماء على طول المدى.

في الحديث الشريف إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقةٍ جارية أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له. ولقد جمعت الثلاث رحمك الله وجعل الجنة مآبك، وطيَّب ترابك وجزاك خيرًا لما قدمت وأثابك يا معلمي، سلام عليك وأنت في ملكوت

السماء في مقعد صدق، في فضاء من الطهر والعفة والنقاء، بعيدًا عن دنيا الكذب والغش والرياء، سلام عليك يوم ولدت ويوم رحلت ويوم تبعث حيّا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.